(١٢) لحظات التحدي

بدأت الشمس تلقي بظلال غروبها على سماء المدينة المشتعلة فى كل مكان ..فى الوقت الذى عقد مسئول الأمن القومي حاجبيه فى توتر بالغ وهو يتجه بسيارته الى بوابة السور الضخم الذى يحيط بالقصر الرئاسي قائلاً لوزير الدفاع الجالس بجواره :

- من كان يتصور أن تنقلب الأوضاع فى هذا البلد الى الحد الذى نأتي فيه معاً متخفيين داخل هذه السيارة المتواضعة وبدون سائق خاص أو حراس..

تنهد وزير الدفاع وهو يقول :

- كل ذلك رد فعل طبيعي يا صديقي .. لقد حذرتهم فى أكثر من لقاء من نتائج سياساتهم ولكنهم لم يدركوا أو حتى يصغوا .. وجماعة الاخوان بارعون فى استغلال الفرص يحاولون اثارة المزيد من الثورة ليقدموا انفسهم كاختيار مثالى لقيادة البلاد..

أومأ مسئول الأمن القومي رأسه موافقاً وهو يستطرد فى حنق :

- كل هذا بسبب ابن مدلل مراهق تركوه يلعب بمقدرات وطن وكأنها لعبة يلهو بها كما يشاء . فحول وطن جمهورى الى نظام ملكى مستبد..

ثم التفت الى وزير الدفاع مكملاً :

- هل تعلم أننى وفى أكثر من لقاء معه كنت أفكر جدياً بإطلاق النار عليه وإنقاذ الوطن منه ..

ابتسم وزير الدفاع قائلاً فى رصانة :

- يبدوا أن خبرتك مازالت محدودة فى عالم السياسة .. تريد أن تطلق عليه النار هكذا .. بطريقة مباشرة ..

هتف المسئول :

- وقتها سأتحول إلى بطل ..

هز وزير الدفاع رأسه قائلاً :

- هذا ليس أسلوبك ..

قال المسئول :

- بالتأكيد .. ولا أسلوبك أنت ..

إستطرد وزير الدفاع :

- لهذا نحن أصدقاء ..

ثم عقد حاجبيه قائلاً فى حزم :

- استعد .. فأنت على موعد مع أسلوب جديد فى التعامل ..

حاول مسئول الأمن القومى ادراك مغزى هذه الكلمات وهو يبطئ من سرعة سيارته لتقف فى هدوء أمام مجموعة من العمالقة ضخام الاجساد يقفون امام بوابة القصر وكلا منهم يمسك مدفعاً آلياً ضخماً واحدهم يشير الى السيارة بالتوقف.. فى الوقت الذى تحرك أحد العمالقة ودار حول السيارة ثم أدخل رأسه عبر نافذتها وتأمل وجههما بمزيج من الشك والتحفز بعدها قال فى خشونة وهو يفتح باب السيارة بعنف:

- انزلا ..

اتسعت عينا المسئول فى دهشة مذهلة قائلا فى استنكار شديد :

- هل جننت يا رجل؟؟ إننى مسئول الأمن القومي وهو وزير الدفاع ..

أجابه العملاق ببرود مستفز:

- انها التعليمات ..

هم المسئول بالرد معترضا الا ان وزير الدفاع قال فى هدوء:

- ليست هناك مشكلة .. (ثم قال للمسئول مستطردا) من الأفضل أن ننزل.

ثم هبط من السيارة فى حين غادرها المسئول فى ضيق فى الوقت الذى قام فيه ثلاثة منهم بتفتيش السيارة بينما تقدم منهما عملاق آخر وفحص جسديهما بجهاز خاص ثم قال بصوت غليظ :

- الأسلحة ممنوعة كذلك الهواتف و.....

هتف مسئول الأمن القومي فى حدة :

- سلاحي معي أينما كنت ..

وهنا قال وزير الدفاع فى لهجة عسكرية قوية مع مزيج من الحزم والصرامة:

- أبلغ ابن الرئيس بقدومنا وقل له بالحرف الواحد بإننا نرفض هذا الاسلوب الوقح فى التعامل فإما أن ندخل بكرامتنا أو نعود ..

تبادل الجميع نظرات التحدي للحظات حتى رفع احد الحراس العمالقة جهازه اللاسلكي وهو يبتعد عنهم قليلا وبعد دقيقة كاملة عاد إليهم وهتف وهو يشير للحراس بلهجة آمرة :

- يسمح لهما بالعبور ..

عاد وزير الدفاع ومسئول الأمن القومى الى مكانهما داخل السيارة التى انطلقت عبر البوابة الى الطريق المؤدي للقصر والذى تحيطه الأشجار من الجانبين وفى قلق تساءل المسئول :

- ما الذى يحدث بالضبط ؟؟

أجابه وزير الدفاع فى سخط :

- رد فعل طبيعي لشخص لا يثق بأحد مثل رفضه أن نحضر اليه بالطائرة خوفاً من أن نقذف القصر بالصواريخ مثلا .. فهو غارق فى مزيج عجيب من الخوف والقلق والشك وسوء الظن والتعالي لذلك يأخذ احتياطات أمنية كثيرة ومبالغاً فيها لخوفه الشديد من الشعب وكلما ازداد ذلك فى أعماقه كلما تضخم هاجسه الأمني بالاضافة الى أنه يعلم جيداً أن الوطن يشهد ثورة حقيقية..

أومأ المسئول برأسه مستطردا وهو يثق بالسيارة أمام مدخل القصر الرحب :

- أوافقك الرأى .. فالأمن يحاول مقاومة مئات الآلاف من أفراد الشعب الذين يحاولون الوصول الى هنا .. لذا فهى مسألة وقت ..وستكون الجماهير الغاضبة على أبواب القصر مهما كلفهم هذا من دماء وشهداء ..

قال وزير الدفاع وهو يهبط من السيارة :

- لقد اتخذوا القرار.. ولا مجال للتراجع ..

وفى لهجة حازمة يملؤها الاصرار:

- المهم .. أننى لن اقابل الابن المدلل هذا .. وإنما اريد التحدث مع الرئيس..

نظروزير الدفاع إليه وغمغم والشك يتساقط من كلماته :

- أتمنى أن يكون واعياً لما يحدث الأن .. أتمنى أن يتخذ القرار المناسب لهذه المرحلة الحالية بعيدا عن تسلط ابنه .. أتمنى ..

وفى خطوات واسعة ووسط ترقب شديد من الحرس المنتشرين فى المكان دخل وزير الدفاع الى القصر بصحبة مسئول الأمن القومى وكان شعور غريب ينمو داخل أعماقهما بأن الساعات القادمة ستحمل الكثير والكثير من الاحداث والمفاجآت المذهلة .. والدامية ..

*****

بكلمات رصينة قال السيناتور موجها حديثه لابن الرئيس عبر الفيديو كول الذى ينقله جهاز اللاب توب الخاص بالثانى :

- لا تقلق .. أمريكا تدعم موقفك .. وأنا كعضو بارز فى الكونجرس اضمن لك استمرار وجودك على رأس السلطة فى دولتك.. شريطة أن تكون الامور كلها تحت سيطرتك أنت كما اعتدنا اثناء التعاون معاً طوال الثلاث سنوات الماضية..

قال ابن الرئيس بشئ من العصبية :

- بالتأكيد .. بالتأكيد ايها السيناتور .. ولكن الاعلام الغربي كله بدأ فى مهاجمتي.. و

هتف السيناتور :

- دعك من الإعلام .. فهم لا يملكون غير الكلمات فقط .. أما سياستنا تجاهكم فلن تتغير .. بل على العكس .. سنبذل قصارى جهودنا فى الحفاظ عليك. (ثم استطرد قائلاً) المهم الأن اذا عجزت عن حل أى مشكلة أبلغنا فورا.. فلدينا حلول لكل المشاكل التى قد تواجهك خلال الساعات المقبلة ..

قال الابن :

- شكراً لكم .. وانا اعاهدكم بأننى سأكون دائماً حليف قوى لكم فى المنطقة .. فالمهم عندى هو ارضائكم ..

هز السيناتور رأسه موافقاً وأغلق المكالمة المرئية بدون كلمة واحدة اضافية .. بينما زفر هو فى ضيق وهو يغمغم:

- بالتأكيد كانوا يعلمون ويخططون لقيام الثورات ويدركون ابعاد الموقف والامور ثم يدعون انهم تفاجئوا مثل الجميع .. سحقا لهم ..

ثم أغلق عينيه وشبك أصابع يديه أمام وجه وبدا انه غارقاً فى التفكير ثم تناول سماعة هاتف بجانبه وضغط عدة ازرار بتتابع منتظم وانتظر لحظة ثم هتف بلهجة صارمة :

- فليسمح بخروج رئيس الوزراء ورئيس البرلمان ورئيس المحكمة الدستورية العليا على أن يبعثوا بتقارير المتابعة كل ساعة مع التنبيه عليهم بعدم مخالفة أوامرى بشأن حالة الرئيس..

ثم أغلق الهاتف وفى نفس الوقت الذى رن فيه جهاز الاتصال الداخلي بجوار الابن لينبعث منه صوت يقول :

- سيادة وزير الدفاع هنا يا سيدى..

ضغط الابن زرا بجهاز الاتصال وهو يقول بلهجة آمرة قوية :

- ادخله فوراً

وما هى الا لحظات حتى دلف وزير الدفاع الى مكتب الابن الذى راقبه وهو يتجه اليه قائلاً له فى صوت خالي من أى تعبير ودون أن يقوم من مكانه كما تتطلب اساليب اللياقة فى استقبال الضيوف :

- مرحباً بوزير الدفاع ..

جلس وزير الدفاع أمامه وبدون أى مقدمات سأله فى لهجة قوية:

- أين الرئيس؟

سأله الابن فى برود مستفز:

- وأين مسئول الأمن القومي؟

أجاب وزير الدفاع بنفس الوتيرة المستفزة :

- أنه جالس مع رئيس الديوان

قال الابن ساخرا:

- رئيس الديوان .. رئيس الديوان الذى تمت اقالته منذ عدة ساعات ..

هز وزير الدفاع كتفيه فى لامبالاه بدون تعليق منه فاستطر الابن متسائلاً:

- أليس من المفترض ان نكون الأن فى اجتماع ثلاثي ؟

رد وزير الدفاع فى حزم واضح:

- من المفترض وفى هذا الموقف المتأزم أن يكون الأجتماع مع رئيس الجمهورية وليس رئيس حزب..

احمر وجه الابن وهو يقول بشئ من العصبية :

- رئيس الحزب الحاكم .. والرئيس القادم رغم أنف كل المعارضين.

سأله الوزير:

- حسناً وماذا اذا كان الشعب كله فى قائمة المعارضين ؟

تراجع الابن بظهره الى الوراء قائلاً:

- لا تقلق من الشعب .. يمكنني السيطرة عليه عاجلاً أم آجلاً.. ما يهمني الأن هو أنت وجنودك..

ضاقت عينا الوزير وهو يسأل :

- وماذا تريد من الجيش؟

تنهد الابن وهو يجيب :

- دعني أوضح لك أمراً هاماً .. فرغم دعم الدولة وبلا حدود لجهاز الشرطة إلا أن الأمر الأن يفوق قدرتها العددية بكثير ويحتاج الى تدخل من أفراد الجيش لفرض الأمن والسيطرة ..

ووسط ابتسامة ساخرة مريرة قال الوزير:

- الجيش ..(ثم استطرد فى جدية بالغة) للأسف لقد أهملتم تسليح وتحديث الجيش رغم أننى أعترضت على ذلك مراراً وتكراراً وذكرت فى تقاريري طوال فترة وجودى فى منصبي كوزيرا للدفاع بأنكم ترتكبون خطأ فادح سيدفع ثمنه الشعب والوطن.

أشار الأبن اليه قائلاً :

- زمن الحروب التقليدية انتهي .. فلماذا اجهد ميزانية الدولة بصفقات سلاح سيكون مكانها المخازن وسيصيبها الصدأ من عدم الاستخدام.

وأكمل الوزير مستنكراً:

- وفى المقابل يكون لجهاز الشرطة نسبة كبيرة من الميزانية وذلك لضمان فرض السيطرة وقمع أكبر وأعنف للحريات وبناء المزيد من السجون والمعتقلات الرهيبة العلنية والسرية منها أيضاً .. أليس كذلك .. ثم .. ثم لماذا تنظر الى الجيش بهذه النظرة الضيقة الغير منطقية؟؟ .. ان للجيش دور شريف وضروري للدفاع عن الوطن ضد أى غازي أو محتل..

انعقد حاجبا الابن وهو ينظر الى الوزير بنظرات نارية قائلاً:

- أنت تكرهني .. وتكره سياستي وأسلوبي فى العمل .. (ثم استطرد فى حزم) ولكن من الواضح أنك تجهل أيضاً أن النظام العالمي الحالي قائم على التحالفات .. فنحن وفى خلال فترة قصيرة اصبحنا حليف أساسي لأمريكا .. أقوى دولة فى العالم ..

هتف الوزير فى تساؤل بلهجة ذات مغزى :

- وما المقابل؟؟

اجابه الابن :

- الدفاع عن المصالح الامريكية فى المنطقة مقابل منح ومساعدات بلا حدود نستفيد منها جميعاً.

قال الوزير فى لهجة حازمة قوية النبرات:

- المساعدات لا تبني وطن حر..

قال الابن فى سرعة :

- ولكنه يبقيه حياً يعيش فى سلام ..

هتف الوزير فى حزم أقوى:

- تقصد يعيش عبداً لا يملك قراره .

رد الابن فى حدة :

- كلماتك هذه هى التي لا تبني وطن .. افكارك هذه لم تعد تصلح فى ظل نظام رأسمالي عملاق لا يعرف العواطف وكلمته العليا هي المصلحة ..

لوح وزير الدفاع بيده قائلاً:

- وما حدث الأن هو تعارض المصلحة التى تسعى اليها مع ارادة الشعب .. فكانت النتيجة الثورة ..

ابتسم الابن وهو يقول فى استهتار:

- تقصد ما يدور خارج القصر.. انه تقليد .. مجرد تقليد أعمى لثورات الخريف العربي..

اعتدل الوزير فى مكانه والتصق صدره بحافة المكتب وهو يقول بمزيج عجيب من الحزم والصرامة والمرارة :

- وأنهار الدماء التى تسيل بالخارج ..والشهداء الذين يتساقطون كل دقيقة ..وزهرة شبابنا الذين تم القاء القبض عليهم ويصرخون الان جراء حفلات التعذيب التى تقام على اجسادهم الطاهرة ..وأنت جالس هنا فى مكانك تضيع وقتي ووقتك فى اثبات صحة سياساتك الفاشلة التى أضاعت هذا الوطن .. بل وتريدنى أن اشارك فى هذه المهزلة التاريخية ..

صمت الابن للحظات تبادل فيها نظرات نارية يملؤها التحدى مع وزير الدفاع وبدا انه سينفجر فى وجهه الا انه تماسك وهو يقول فى هدوء:

- هل تعلم يا وزير الدفاع ..فى كل مرة أحاول أن أقوم بعزلك من وظيفتك كنت أتراجع فى اللحظة الاخيرة .. لأننى أعرف مدى قوة تأثرك على القادة والجنود داخل الجيش .. وأعلم أن القرار من الممكن أن يضرني بأكثر مما ينفعني .. لذلك أطلب منك بصورة مباشرة أن ينزل الجيش الى الشارع وينضم الى الشرطة لاعادة الانضباط والهدوء الى الوطن..

تراجع وزير الدفاع وهو يقول فى حسم:

- فى هذه الحالة سأتعامل بأسلوبي مع الموقف الراهن..

قال الابن :

- هذا معناه انك ستنضم الى الثورة المزعومة ..

هتف الوزير بلهجة قوية :

- ولائي الى الوطن والشعب .. ولن أطلق رصاصة واحدة تجاه مواطن..

أشار الابن قائلاً فى لهجة لاذعة :

- أرأيت .. أنت تحاول الأن أن تقلد الجيش المصري..

قال الوزير:

- أعلم أن كلماتي سيرفض عقلك أن يستوعبها .. ولكن هناك ما يسمى بالانتماء .. والتضحية .. والواجب .. والضمير .. وكلها ثوابت موجودة فى أعماقي تحركنى وتجعلني اتخذ القرار السليم الذى يخدم الوطن .. (ثم استطرد مضيفاً) ثم لماذا تتعامل مع الأمن بإعتباره الحل الوحيد والأمثل والأفضل لكل المشكلات التى تعجز أنت عن ايجاد حل سياسي لها؟؟

تساءل الابن بتهكم لاذع :

- وهل هناك حل آخر لعودة النظام وهيبة الدولة ..

قال الوزير:

- الحل الأمني .. يعني القمع .. وبالتالي تتحول أنت الى طاغية.. والنتيجة ثورة .. ثورة شعب تطيح بك .. هكذا علمنا التاريخ وأخبرنا ..

اراد الابن أن يرد الا ان رنين الهاتف ارتفع بجانبه فامتدت يده لتلتقط سماعته ووضعها على أذنه وساد الصمت للحظات كان فيها الابن يستمع باهتمام شديد للغاية ومن ثم اتسعت عيناه وهو يهتف فجأة :

- متى حدث ذلك؟؟

ثم قطب حاجبيه وهو يقول فى صرامة شديدة :

- أريد تقرير كامل حول هذه الواقعة بعد نصف ساعة .. وأبلغنى بسير التحقيقات أولاً بأول ..

ثم وضع السماعة فى عنف وهو يتنهد بقوة فقال وزير الدفاع فى قلق :

- ماذا حدث ؟؟

مط الابن شفتيه وهو يقول فى عصبية :

- لقد تم اغتيال رئيس البرلمان ورئيس المحكمة الدستورية العليا برصاصات غادرة .. وفى توقيت واحد تقريباً..

ظهر الاسى والحزن الشديدين على وجه وزير الدفاع وهو يغمغم :

- لماذا ؟؟ لماذا كل هذه الدماء ؟؟ .. لا حول ولا قوة إلا بالله ..

ثم تجمدت ملامح وجهه فجاة عندما قفز الى عقله خاطر أفزعه فضاقت عيناه وهو ينظر بنظرات ذات مغزى الى ابن الرئيس الذى نهض من مقعد مكتبه وعقد كفيه خلف ظهره وهو يتحرك عشوائياً فى الحجرة قائلاً دون أن يلتفت الى الوزير:

- صدقنى لا يوجد حل آخر غير الحل الأمني .. أنه المناسب فى مثل هذه المواقف وبدونه سنخسر العديد من رجال الدولة ..

أدهشه عندما هتف الوزير فجأة وفى صرامة عسكرية واضحة :

- أريد أن أقابل الرئيس الأن .. اريد أن أطمئن على صحته..

التفت اليه الابن وتبادلا الاثنان النظرات النارية للحظات ثم القى الابن نظرة الى ساعته قائلاً فى برود:

- من قال لك أنه مريض .. رئيس الديوان؟؟

فقال الوزير نافياً :

- لا .. ولكن من السهل التوقع بذلك .. لأننى لم أراه حتى الأن ..

فهتف الابن وهو يتجه الى خارج حجرة مكتبه :

- حسناً .. هيا بنا..

وفى طريقهما عبر ممرات القصر الرئاسي كان عقل وزير الدفاع يشتعل من التفكير وهو يغمغم فى قرارة نفسه :

- هل فعلها ابن الرئيس ؟؟ .. اسلوبه وسياساته تنبأ بأنه من الممكن أن يفعل أى شئ .. لقد ذكر عبر حواره معه انه الرئيس القادم .. وقتل رئيس البرلمان ورئيس المحكمة الدستورية له مغزى رهيب يرتبط بتأكيده على أنه الرئيس القادم .. يا إلهي .. انه يتخلص من الجميع .. هذا يعنى أننى فى خطر و..

وتسلل الى انفه رائحة خاصة جداً .. رائحة الدم ..

*****